

جامعة الموصل

كلية الآداب

القسم: الفلسفة



عنوان المحاضرة: العلوم العملية

المادة الدراسية: فلسفة يونانية

المرحلة الدراسية: المرحلة الثانية

مدرس المادة: م. رؤى زبير عبد الجبار

العام الدراسي: ٢٠٢٥-٢٠٢٦

العلوم العملية

(جذور الأخلاق الأرسطية)

إن البدء بدراسة العلوم العملية عند أرسطو بقسميها المتمثلين بالأخلاق والسياسة، ومحاولة البحث عن الغايات التي يحددها ويرسمها لكل منهما، يشعرا ومنذ الوهلة الأولى التي يطأ فيها تفكيرنا هذه الحلقة المهمة في منظومة أرسطو الفلسفية ، أن جانب التفكير الإنساني لفلسفته يعد بمثابة هبوط من المثالية الأفلاطونية التي كادت أن تعانق السماء إلى الواقعية التي ارتبطت بالإنسان وأحواله وظروفه في هذا العالم . وكما أن هناك الكثير من الاختلافات بين مذهب أفلاطون وأرسطو في مجال الفلسفة الطبيعية، فإن الاختلاف موجود أيضاً وقد يكون أوضح ظهوراً في مجال الفلسفة الأخلاقية والسلوك العملي .

هذا الاختلاف يتبين لنا بشكل أكثر دقة حينما نلاحظ أن آراء أرسطو في المجال الأخلاقي قد انطلقت من نظرة واقعية، حيث ذهب إلى أن الإنسان يسعى في حياته تلقائياً للسعادة والخير. ولكنه أكد في الوقت ذاته بأن هذا لا يتحقق إلا بتحقيق أمور أخرى كالفضيلة واللذة. وهذه من جملة الغايات التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، ومع إن أرسطو لا يختلف عن الفلاسفة الآخرين اللذين اعتبروا البحث عن السعادة وتحقيقها هو الغاية والهدف الأساسي الذي تبحث عنه الفلسفة ، إلا أنه يؤكد بخلافهم على أن معرفة الخير والسعي إليه علم يسعى الإنسان إليه منذ ولادته ويتمنى تحقيقه. فالإنسان بنظر أرسطو مؤهل بفطرته ، ليحيا حياة سياسية واجتماعية .

كما أن آراء أرسطو الأخلاقية كانت أوثق اتصالاً بالعنصر الإنساني في تعاليم سقراط الأخلاقية من نظرية أفلاطون ، وهذا يؤكد بشكل أكبر مدى الاختلاف بين الأخلاق الأرسطية وتلك

الأفلاطونية . فقد كان موضوع الأخلاق الأول في فلسفة أرسطو هو (ما الذي يرمي إليه الإنسان ، بما هو إنسان ، أو ما العمل المحدد أو الوظيفة التي تريد له الطبيعة إن يقوم بها) ، - وهذه الطريقة هي طريقة سقراط - ، فقد كان سقراط يحب الصناعات الحرفيين لأن لديهم هدفاً في عملهم ، ويعرفون ما كانوا يقومون به . كان النجار يفهم وظيفته كنجار ، ولكن ما من إنسان ، عند سقراط ، كان يفهم وظيفته كإنسان . وهذا هو الشيء الذي عني به عناية شديدة ودفعه إلى هذا المساق من البحث حول طبيعة مبادئ الحياة الخيرة ، وهو بحث واصله أفلاطون بطريقة ما ، ثم أكمله أرسطو بإتباعه الطريقة السقراطية في استقرائه للغاية القصوى أو الخير الأسمى للإنسان ، وكان - مثل سقراط - مشغولاً ، طوال كتاباته بعقد المقارنات بين الصنائع وعمل الصنائع لإضاءة النقط التي يريد إضاءتها أو تأكيدها ^(١) .

ومع أن أرسطو يعد أول من مذهب الأخلاق حقيقة ^(٢) ، إلا أن تناول هذا الجزء من فلسفته لا يمكن أن يستقيم بأي حال من الأحوال إلا بمعرفة نظريته في النفس .

في طبيعة الفعل الأخلاقي

السلوك الإنساني والإرادة والاختيار

يهتم علم الأخلاق عند أرسطو بالشخصية الفردية وسلوكها ، وبالرغم من أنه يعالجه معالجة مستفيضة ، ويوليها استقلالاً ملحوظاً ، " إلا أنه في الحقيقة ليس سوى جزء تابع من الناحية النظرية لعلم السياسة ، ومع أنه يُصرُّ على أن حياة الفرد الخيرة لا يمكن أن تتحقق إلا في الجماعة ومن خلالها ، إلا أنه يبدو وكأنه يقترح أن اكتمال الشخصية الفردية هي الغاية التي تشكل حياة الجماعة ، وصنائع القوانين وسيلتها " ^(١) .

فالفرد بالنسبة لأرسطو هو الأساس والنواة للمجتمع ، وبناء على ذلك يمكننا القول بأن الغاية الأولى والأساسية في نسق أرسطو الأخلاقي هي محاولة إيقاظ الفرد والتوجه به نحو إستكمال شخصيته . إذن فإيمانه بالفرد هو الذي حثه على أن يجعله نقطة الإنطلاق الأولى له . ولكن على الرغم من أنه يبدو في بعض المواضع قد وضع مثاليات أخلاقية للفرد إلا أنها كانت - وعلى العكس من أفلاطون - مثاليات مشتقة من واقع الحياة الإنسانية ، أي أن الأساس الذي أعتمد عليه في وضعها هو دراسة الطبيعة البشرية . وبذلك أصبحت هذه القيم الأخلاقية لا تلقي بالإنسان في عالم آخر ، أو تجعل الفرد

يشعر بعجزه في الوصول إليها، وإنما كانت أخلاقاً توجه سلوك الفرد نحو هذا المجتمع الذي يعيش فيه.

والأخلاق عند أرسطو، مثل سائر فلسفته، غائية، تعنى بالغاية أو الهدف. وموضوعها الأول هو ما الذي يرمي إليه الإنسان، بما هو إنسان، أو ما العمل المحدد أو الوظيفة التي تريد له الطبيعة أن يقوم بها. هذه الطريقة في البحث عن الهدف من خلال العمل أو الوظيفة هي - كما ذكرنا من قبل - طريقة سقراطية جداً^(٢). إلا أن أرسطو يعي بوضوح أن موضوع الأخلاق يختلف عن موضوع العلوم الأخرى. فالأخلاق ليست علماً دقيقاً كالرياضيات، وموضوعها لا يسمح بدقة كاملة تبلغها العلوم الأخرى من خلال إتباعها توضيحاً منضبطاً تستخرجه من مبادئ أولى يمكن الإلمام بها بسهولة.

وهو يفسر ذلك أحياناً بكون الأخلاق معنية بأشياء ليست ضرورية أو محددة على نحو مطلق، بل هي (في الأغلب كذلك) و (قابلة لأن تكون غير ذلك). ويشير في مواضع أخرى إلى أن الأخلاق لا تبدأ استكشافها إنطلاقاً من مبادئ أولى، بل هي تنتهي بها. فنحن لا نبدأ من قوانين أخلاقية كلية، بل من أفكار مقبولة عموماً وأحياناً مشوشة عن الخير الأخلاقي تكون ضمنية في سلوك الناس المحترمين الذين نشأوا نشأة صالحة^(١).

وعلى كل حال، فقد كانت الأخلاق بنظر أرسطو، سمة سائر المباحث، فحصى عن خير ما، وهو الخير الخاص بالإنسان، من حيث هو إنسان، وإذا كان السؤال الأساسي فيها (ما هو الخير؟)، فإن ما ينبغي لنا في البدء بحثه هو ما طبيعة الفعل الإنساني، بوصفه فعل موجه نحو خير ما؟ ذلك لأن الهدف الرئيس لمحاضرات أرسطو في الأخلاق لم يكن بيان ماهية الخير لسامعيه، بل أن يجعلهم يصيرون خيرين^(٢)، وعليه فينبغي لنا معرفة طبيعة الفعل أو السلوك الذي يُمكنهم من ذلك.

يقول أرسطو في مطلع المقالة الأولى من كتابه (الأخلاق إلى نيقوماخوس):

"إن كل صناعة وكل مذهب، وكذلك كل فعل واختيار فقد يُعلم أنه إنما نتشوق به خيراً ما. ولذلك أجاد من حكم على الخير أنه الشيء الذي يتشوقه الكل*. وقد يظهر أن من بين الغايات المقصودة إختلافاً، وذلك أن منها ما هي الأفعال أنفسها، ومنها ما هي المفعولات الحادثة عن تلك الأفعال. والأشياء التي لها غايات ما سوى الأفعال، فالمفعولات فيها أفضل من الأفعال" (١). ومعنى ذلك

أن أي سلوك بشري لا بد أن يستهدف غاية معينة وهي تعد خيراً بطريقة ما، فأرسطو يذهب الى أن فعل الانسان وسلوكه غائي ، أي أنه يهدف الى غاية ما، وغالباً ما تعتبر هذه الغاية خير من نوع معين . ولكن ما نوع هذا الفعل أو السلوك الصادر عن الانسان هل هو قسري أم إختياري ؟
واع أم غير واع ؟

يشير أرسطو في تعريفه للفضيلة الأخلاقية ** الى الإرادة أو الاختيار، وتؤدي به هذه الإشارة الى البحث في طبيعة العلاقة بين الإرادة والفعل أو السلوك. وعلى الرغم من أنه " مثل (أفلاطون) ليس لديه تصور واضح ومميز عن الإرادة " (٢)، إلا أن هدف أرسطو الرئيس في هذا البحث هو أن يتجنب الوقوع في مذهب يبدو متناقضاً وتظن العين المتسريعة انه مما تقول به مؤلفات أفلاطون. هذا المذهب هو القول بأن فعل الخطأ هو دوماً نتيجة للجهل، أو أن الرذيلة هي الجهل*. وموقف أرسطو هو أن الموضوع الحقيقي للموافقة أو اللوم إنما هو حالة الإرادة** التي تكشف عنها أفعال الانسان. والسبب في ذلك هو أن الانسان يكون هو العلة الفاعلة لأفعاله في حالة السلوك الإرادي. ولهذا، فإن القانون لا يعترف إلا بحالتين فقط يمكن للشخص فيهما أن يدفع بأنه غير مسؤول عما فعل : الأولى أن يكون مضطراً تحت ضغط دافع جسمي قاهر للسلوك كما سلك، والثانية حالة الجهل ببعض العوامل المادية المتصلة بظروف السلوك، على شرط أن لا يكون الجهل راجعاً الى إهمال وقع فيه الشخص . وحين يحدث واحد من هذين المبررين، فإن ذلك الشخص لا يكون مسؤولاً بإرادته عن الفعل الناتج عن سلوكه ،ولا يكون بالتالي مسؤولاً عنه مسؤولية حقيقية. ولكن ليس هناك إمكان للاعتذار بجهل قوانين الاخلاق العامة^(١). فالفعل الارادي إذن هو ما كانت دوافعه صادرة من باطن الفاعل، أما ما كان مصدره قوة خارجية لا سيطرة للإنسان عليها، كأن يكون قوة مادية خارجية كدفع الهواء مثلاً للإنسان أو كأن يكون من شخص آخر أو كان صادراً عن جهل بالظروف المحيطة بالعمل فلا يسمى عند أرسطو عملاً إرادياً " (٢). لذلك يضيف أرسطو عنصر الاختيار الى جانب الإرادة لكي يُعرف أفعال الفضيلة فلا يكفي في الأخلاق أن يكون الفعل إرادياً بل أن يكون أيضاً صادراً عن إختيار وروية ، والاختيار يقع عادة على الوسائل في حين تتجه الارادة الى الغاية كما أنه لا يقع إلا على الأمور الممكنة أما ما يحدث بالضرورة كحركة الكواكب مثلاً فليس مما يقع في دائرة اختيارنا ^(١)، وبناءً على ذلك فقد كانت " الإرادة والاختيار شرطان ضروريان نحو سلوك طريق الفضيلة، أما الاختيار فهو اختيار عاقل وواع وترشيد لتلك الإرادة الغريزية، ومن هنا كانت الفضيلة الأخلاقية عند أرسطو متمثلة في

تحكم العقل في الشهوة، فهي فضيلة أساسها الاختيار العقلي لذلك (الحد الوسط) ثم سلوك طريقه باستمرار " (٢)، ذلك الاختيار العقلي هو العنصر الاساسي في الفعل الأخلاقي. وإذا لم يكن لدى أرسطو - كما ذكرنا - تصور واضح عن الإرادة، فهو برغم ذلك يقترب منها بالغ القرب في مذهبه عن الاختيار العقلي أو بعبارة أرسطية أكثر (الاختيار المتروي).

وهو يميز تمييزاً واضحاً هذا الاختيار عن مجرد الشهوة، التي ليس لها علاقة عقلية أو أخلاقية به، وعن الرغبة العقلية التي يمكن توجيهها نحو الاستحالات : إذ نستطيع أن نرغب في المستحيل، لكننا لا نستطيع اختياره. وهو يقول إن الاختيار يجب أن ينصب على الأشياء التي تقع في متناول قدرتنا، ويجب أن يتبع عملية من الفكر المتروي. فهو فعل تجتمع فيه الرغبة والعقل. إنه (عقل راغب، أو رغبة عقلية)، و (رغبة تقوم على الرؤية) (٣). وأرسطو يضيق من مجال مفهومه عن الاختيار دون ضرورة للقول أنه لا يعنى إلا بالأوساط، لا بالغايات. فالغايات هي موضوع الرغبة، ويبدو أن أرسطو يعتقد، على الأقل وهو يناقش الاختيار، أنها واضحة ومباشرة، ولذلك فنحن لا نحتاج للرؤية فيها (٤).

يصر أرسطو على أن الفعل الأخلاقي، الذي لا يقتصر على كونه إرادياً، ولكنه يقوم أيضاً على الاختيار المتروي، هو فعل حر، وأن الفضيلة والرذيلة هما خصلتان تقعان في متناول طاقتنا (١). ولذلك فهو يعترض بقوة على قول سقراط : (ما من إنسان سيء بإرادته)، وعلى الرغم من أن " الفضيلة والرذيلة لا تعدوان كونهما إرادتين عند أرسطو . والإنسان بذلك هو رب أفعاله صالحة كانت أم طالحة. وعليه إرادته حرة " (٢). إلا أنه ليس بواضح جداً أو متماسك حول كيف أو لماذا بالضبط نكون أحراراً في الفعل الحسن أو الرديء. وحين يأتي لمناقشة حالة الأفعال اللاأخلاقية التي يقتربها ضعيف الإرادة (الإنسان غير الفاضل أو الرذيل) يتوصل أحياناً ويقر بأنه يتوصل إلى موقف ليس ببعيد جداً عما يرجح أن سقراط قصده (٣).